٣٢ - الغيبـــــة (٢)

إنَّ الحَمْدَ لِله... أَمَّا بَعْدُ:

فَمَعاشِرَ المُسلِمينَ:

تَقَدَّمَ فِي الجُمُعَةِ الماضِيةِ كَلامٌ يَسيرٌ عَن قَبيحِ أَمرِ الغِيبَةِ، وَأَنَّها مِن كَبائِرِ الذنوبِ التي تَظهَرُ آثارُها عَلى الأَفرادِ والمُجتَمَعاتِ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَلَمَّا كانَت آثارُ الغِيبَةِ وَبالاً عَلى صاحِبِها فِي الدُّنيا والآخِرَةِ، كانَت تِلكَ الآثارُ تَقِلُّ وتَكثُرُ بِحَسَبِ نَوعِ الغِيبَةِ وما يَترتبُ عَلَيها مِن أَضرارٍ.

وَلَعَلَّ مِن أَعظَمِ أَنواعِ الغِيبَةِ إِضراراً ووَبالاً عَلى المُجتَمَعِ: غِيبَةَ العُلَماءِ المَشهودِ لَهُم بِالرُّسوخِ فِي العِلمِ وَسَلامَةِ المُعتَقَدِ وَالمَنهَجِ، فَغِيبَةُ أُولَئِكَ لَيسَت غِيبَةً لِذَواتِهِم فَحَسبُ، بَل يَتَعَدَّى ذَلِكَ إِلى مَن كانَ عَلى شاكِلَتِهِم مِنَ العُلَماءِ وَطُلاَّبِهِم، وَالأَدهَى مِن ذَلِكَ وَالأَمَرُّ أَن يَترَتَّبَ عَلى ذَلِكَ انتِقاصُ العِلمِ الذِي يَحمِلونَهُ، وَهُنا تَكُونُ الطَّامَّةُ، وَيَنثَلِمُ المُعتَقَدُ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

إِنَّ ازدِراءَ العُلَماءِ وَاحتِقارَهُم مِن أَسبابِ حُلولِ المَصائِبِ، فَمَتَى ما قَلَّ شَأنُ العُلَماءِ فِي بَلَدٍ فَلا تَسأل عَنِ الضَّياعِ العَقَدِيِّ والخُلُقِيِّ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

إِنَّ جَرِيمَةَ اغتِيابِ العُلَماءِ وَالسُّخرِيَّةِ مِنهُم مِن أَعظَمِ الذُّنوبِ جُرماً وَأَشَدِّها ضَرَراً.

فَلْيَحذَرِ المُسلِمُ أَن يَجعَلَ مِن لِسانِهِ مَطِيَّةً لِغِيبَتِهِم وانتِقاصِهِم، فَيكونُ مِمَّن أَحدَثَ فِي الأَرضِ أَو آوَى مُحدِثاً بِدَعمِهِ ونُصرَتِهِ لَهُ.

قَالَ الإِمامُ ابنُ عَساكِرَ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى: (اعلَم أَنَّ لُحومَ العُلَماءِ مَسمومَةٌ، وأَنَّ عاقِبَةَ اِلله فِيمَن انتَقَصَهُم مَعلومَةٌ، وَلَم يَتَكَلَّم أَحَدٌ فِي العُلَماءِ بِالثَّلبِ إِلاَّ ابتَلاهُ اُلله قَبلَ مَوتِهِ بِمَوتِ القَلبِ).

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

إِنَّ مُغتابِي العُلَماءِ عَلى أَقسامٍ:

فَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَآكَلُ قَلبُهُ بُغضاً لِلعُلَماءِ، وهَذا مَرَضٌ لاَ يُرجَى بُرؤُهُ إِلاَّ أَن يَشاءَ اُلله تَعَالَى.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَستَفتِي عالِماً مِنَ العُلَماءِ فِي مَسأَلَةٍ ما، فإِذا كانَ الجَوابُ خِلافَ ما تَهوى نَفسُهُ؛ قامَ بِاللَّمزِ والطَّعنِ والازدِراءِ وَالانتِقاصِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقدَحُ فِي عالِمٍ بِسَبَبِ عَدَمِ إدراكِ ذَلِكَ العالِمِ لِمَسألَةٍ اجتِماعِيةٍ أَو واقِعِيَّةٍ، فَيبدَأُ ذَلِكَ المُنتَقِصُ بِرَمي العُلَماءِ بِعَدَمِ مُحاكاةِ واقِعِهِم أِو مُجتَمَعِهِم، وهَذا فِي الغالِبِ يَدُلُّ عَلى جَهلٍ مُرَكَّبٍ أَو هَوىً مُتَّبَعٍ فِي نَفسِ ذَلِكَ الشَّامِتِ.

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَنتَقِصُ العُلَماءَ لأَنسابِهِم أَو لِصِفَةٍ خَلقِيةٍ أَو خُلُقِيةٍ، وَهَذا وما قَبلَهُ مِن أَعظَمِ الفَسادِ والإفسادِ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

إِنَّ مَعرِفَةَ حَقِّ العُلَماءِ وما لَهُم مِنَ المَكانَةِ وَالتَّقديرِ مِن أَهَمِّ المُهِمَّاتِ.

قَالَ ﷺ: «لَيسَ مِنَّا مَن لَم يَعرِف لِعالِمِنا حَقَّهُ».[1]

وَمِن حَقِّ العُلَماءِ حِفظُ مكانَتِهِم وَالذَّبُّ عَن أَعراضِهِم وَذِكرُ فَضلِهِم عَلى المُجتَمَعِ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وإِنَّ مِن أَنواعِ الغِيبَةِ التِي أَصبَحَت دَيدَناً لِبعضِ النَّاسِ: غِيبَةَ المُحتَسِبِينَ الآمِرينَ بِالمَعروفِ والنَّاهينَ عَنِ المُنكَرِ، تِلكَ الثُّلَّةِ المُبارَكَةِ التِي تُعينُ -بِإِذنِ اِلله- عَلى حِفظِ عَوراتِ المُسلِمينَ وأعراضِهِم.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

إِنَّ نَهشَ أَعراضِ المُحتَسِبِينَ، والتَّنَدُّرَ بِأَخطائِهِم، والسُّخرِيةَ مِنهُم، ذَنبٌ عَظيمٌ، حَتَّى إِنَّ بعضَ ضُعَفاءِ النُّفوسِ ما إِن يَمُرُّ ذِكرُ المُحتَسِبِينَ إِلاَّ ويبدَأُ بِسَلِّ لِسانِهِ عَلَيهِم، يُعَدِّدُ أَخطاءَهُم، يَتَشَفَّى بِنَقدِهِم، بَل ويَلتَمِسُ كُلَّ لَومٍ لِيَحمِلَهُ عَلَيهِم، ومَعَ هَذا كُلِّهِ لا يَقبَلُ فِي الاعتِذارِ عَنهُم صَرفاً وَلا عَدلاً، يا عَجَباً مِن ذَلِكَ الشَّامِتِ! لِمَ كُلُّ هَذا التَّحامُلِ والتَّشَفِّي؟! أَلَيسَ كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطّاءٌ؟ أَلَيسَ المُوظَّفُ يُخطِئُ فِي بعضِ عَمَلِهِ؟ أَلَيسَ التَّاجِرُ يُخطِئُ فِي بَيعِهِ وشِرائِهِ؟ فَقَد يَكونُ غابِناً أَو مَغبوناً. أَلَيسَ المُدَرِّسُ يُخطِئُ فِي مَدرَسَتِهِ؟ فَقد يَضُرُّ طالِباً ويَنفَعُ آخَرَ عَلى حِسابِ الأَوَّلِ. بَل أَلَيسَ الطَبيبُ يُخطِئُ فِي عَمَلِهِ؟ فَقَد يَزيدُ المَرضَ سَرَياناً، وقَد يَتسَبَبُ فِي وَفاةِ المَريضِ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

إِنَّ تَضخِيمَ خَطَأِ المُحتَسِبِينَ نَوعٌ مِن الحِقدِ وَالجُرمِ، لاَ فِي دَواتِهِم فَحَسبُ، بَل وَأَيضاً فِي طَبيعَةِ عَمَلِهِم، فَلْيَتَّقِ اَلله تَعَالَى مَن أَطلَقَ لِسانَهُ أَو قَلَمَهُ فِي آحادِهِم أَو جَماعتِهِم أو جِهازِهِم.

وَلْيَعلَم مَن كان هَذا شأنُهُ أَنَّهُ بِصَنيعِهِ ذَاكَ يَهدِمُ خَيراً ويُعَمِّرُ شَرّاً، يَهدِمُ خِصالاً وَيَبنِي رَذائِلَ.

فَأَهــلُ هَــذا الجِهازِ مِــنَ القائِمينَ -بِــإِذنِ اِلله- عَلى حِفظِ أَمــنِ

---

[1] رواه الحاكم (١/ ١٢٢).

المُجتَمَعِ وَستَرِ عَوراتِهِ مِن أَن تَمَسَّها يَدُ عابِثٍ. فَكَم مِن مُنكَرٍ قَد كَبَتوهُ، وكَم مِن خَبَثٍ قَد دَحَروهُ، فَللَّهِ دَرُّهُم؛ ما أَحسنَ أَثَرَهُم عَلى النَّاسِ، ومَا أَقبَحَ أَثَرِ النَّاسِ عَلَيهِم!

اللَّهُمَّ وَفِّقِ المُحتَسِبِينَ إِلى كُلِّ خَيرٍ، اللَّهُمَّ زِدهُم وَلا تُنقِصهُم، وَأَعِنهُم وَلا تُعِن عَلَيهِم.

الخطبة الثانية

الحَمْدُ لِله...

مَعاشِرَ المُسلِمِينَ:

وَمِن أَحكامِ الغِيبَةِ التِي يَنبَغِي أن تُعلَمَ: ما يتَعَلَّقُ بِأَمرٍ لَبَّسَ بِهِ الشَّيطانُ عَلى كَثيرٍ مِنَ النَّاسِ، ذَلِكَ أَنَّ بعضَ النَّاسِ يَجلِسُ فِي مَجلِسٍ تَنتِنُ رائِحَتُها مِن عَفَنِ الغِيبَةِ وَالنَّمِيمَةِ، وَيَزعُمُ أَنَّهُ بِعَدَمِ مُشارَكَتِهِ لَهُم فِي الحَديثِ لا يَكونُ مُشارِكاً لَهُم فِي الإِثمِ، وهَذا الظنُّ مَنشَؤُهُ الجَهلُ والتَّلبيسُ، وَلِمِثلِ هَذا وأمثالِهِ يُقالُ: إِنَّ الجُلوسَ معَ أَصحابِ المُنكَراتِ مُنكَرٌ فِي ذاتِهِ، إِلاَّ إِذا كانَ جُلوسُهُ لِلإِنكارِ عَلَيهِم وتَذكيرِهِم.

أَمَّا إِذا كانَ الجُلوسُ مَعَهُم لِغَيرِ ذَلِكَ فَهُو مُشارِكٌ لَهُم فِي مَعصِيَتِهِم، حتَّى وَلَو لَم يَشتَرِك مَعَهُم فِي الغِيبَةِ؛ لأَنَّ استِماعَهُ لِغِيبَةِ المُسلِمينَ ونَهشِ أَعراضِهِم مِن جُلَسائِهِ وعَدَمِ الإِنكارِ عَلَيهِم مُنكَرٌ فِي ذاتِهِ.

كَما قَالَ تَعَالَى: {**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ**} [سورة النساء: ١٤٠].

قَالَ الإِمامُ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى: (فَدَلَّ بِهَذا عَلى وُجوبِ اجتِنابِ أَصحابِ المَعاصِي إِذا ظَهَرَ مِنهُم مُنكَرٌ؛ لأَنَّ مَن لَم يَجتَنِبهُم فَقَد رَضِيَ فِعلَهُم، وَالرِّضا بِالكُفرِ كُفرٌ، قَالَ اُلله عَزَّ وجَلَّ: {**إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ**}).

مَعاشِرَ المُسلِمِينَ:

وَعَلى ذَلِكَ: فَالرِّضا بِالغِيبَةِ غِيبَةٌ، وَالرِّضا بِالنَّمِيمَةِ نَميمَةٌ، وَهَكَذا الرِّضا بِأَيِّ مَعصِيَةٍ؛ يُعتَبَرُ مَعصِيَةً مِن جِنسِ المَعصِيَةِ التِي رَضِيَ بِها.

ثُمَّ قَالَ القُرطُبِيُّ رَحِمَهُ اُلله بَعدَ كَلامِهِ السَّابِق: (فَكُلُّ مَن جَلَسَ فِي مَجلِسِ مَعصِيةٍ وَلَم يُنكِر عَلَيهِم يَكونُ مَعَهُم في الوِزرِ سَواء، وَيَنبَغِي أن يُنكِرَ عَلَيهِم إِذا تَكَلَّمُوا بِالمَعصِيَةِ وعَمِلوا بِها، فَإِن لم يَقدِر عَلى النَّكيرِ عَلَيهِم فَيَنبَغِي أَن يَقومَ عَنهُم حَتَّى لا يَكونَ مِن أَهلِ هَذهِ الآيَةِ، وقَد رُوِيَ عَن عُمَرَ بنِ عَبدِالعَزيزِ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى: أَنَّهُ أَخَذَ قَوماً يَشرَبونَ الخَمرَ، فَقيلَ لَهُ: إِنَّ أَحَدَ الحاضِرينَ مَعَهُم كانَ صائِماً، فَحَمَلَ عَلَيهِ الأَدَبَ وقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: {**إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ**} أَي: أَنَّ الرِّضا بِالمَعصِيَةِ مَعصِيَةٌ، وَلِهَذا يُؤاخَذُ الفاعِلُ وَالرَّاضِي بِعُقوبةِ المَعاصِي حَتَّى يَهلَكُوا بِأَجمَعِهِم، وَهَذِهِ المُماثَلَةُ لَيسَت فِي جَميعِ الصِّفاتِ، وَلكِنَّهُ إِلزامٌ شُبِّهَ بِحُكمِ الظَّاهِرِ مِنَ المُقارَنَةِ كَما قِيلَ:

عَنِ المَرءِ لا تَسأَل وَسَل عَن قَرينِهِ فَكُلُّ قَرينٍ بِالمُقارِنِ يَقتَدِي

وَإِذا ثَبَتَ تَجَنُّبُ أَصحابِ المَعاصِي كَما بَيَّنا، فَتَجَنُّبُ أَهلِ البِدَعِ وَالأَهواءِ أَولَى) انتَهى كَلامُ القُرطُبِيِّ رَحِمَهُ اُلله تَعَالَى.

مَعاشِرَ المُسلِمِينَ:

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلى مُفارَقَةِ أَصحابِ المُنكَرِ: ما رَواهُ التِّرمذِيُّ عَن جابِرٍ رَضِيَ اُلله عَنهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**مَن كانَ يُؤمِنُ بِاِلله وَاليومِ الآخِرِ فَلا يَجلِسْ عَلى مائِدَةٍ يُدارُ عَلَيها الخَمرُ**».[1]

قَالَ بعضُ شُرَّاحِ الحَديثِ: (وإن لَم يَشرَب مَعَهُم؛ لأَنَّهُ تَقريرٌ عَلى المُنكَرِ).

فَنَسأَلُ اَلله تَعَالَى أَن يَجعَلَ أَلسِنَتَنا رَطبَةً مِن ذِكرِهِ، وَأَن يَحفظَ عَلَينا جَميعَ جَوارِحِنا.

اَللَّهُمَّ ارزُقنا الاستِقامَةَ فِي الأُمورِ كُلِّها، اَللَّهُمَّ اهدِنا سُبُلَ السَّلامِ وارزُقنا حُسنَ الخِتامِ.

وَلِلحَديثِ بَقِيَّةٌ، وَأَقِمِ الصَّلاةَ.

([1]) رواه الترمذي (٢٨٠٢).